مجلة كليّة

الدعوة الإسلامية

مجلّة إسلاميّة - ثقافيّة - جامعة - محكمة - تصدر سنويًا

العدد
السادس عشر
1999

1429 من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم 1999 إفرنجي

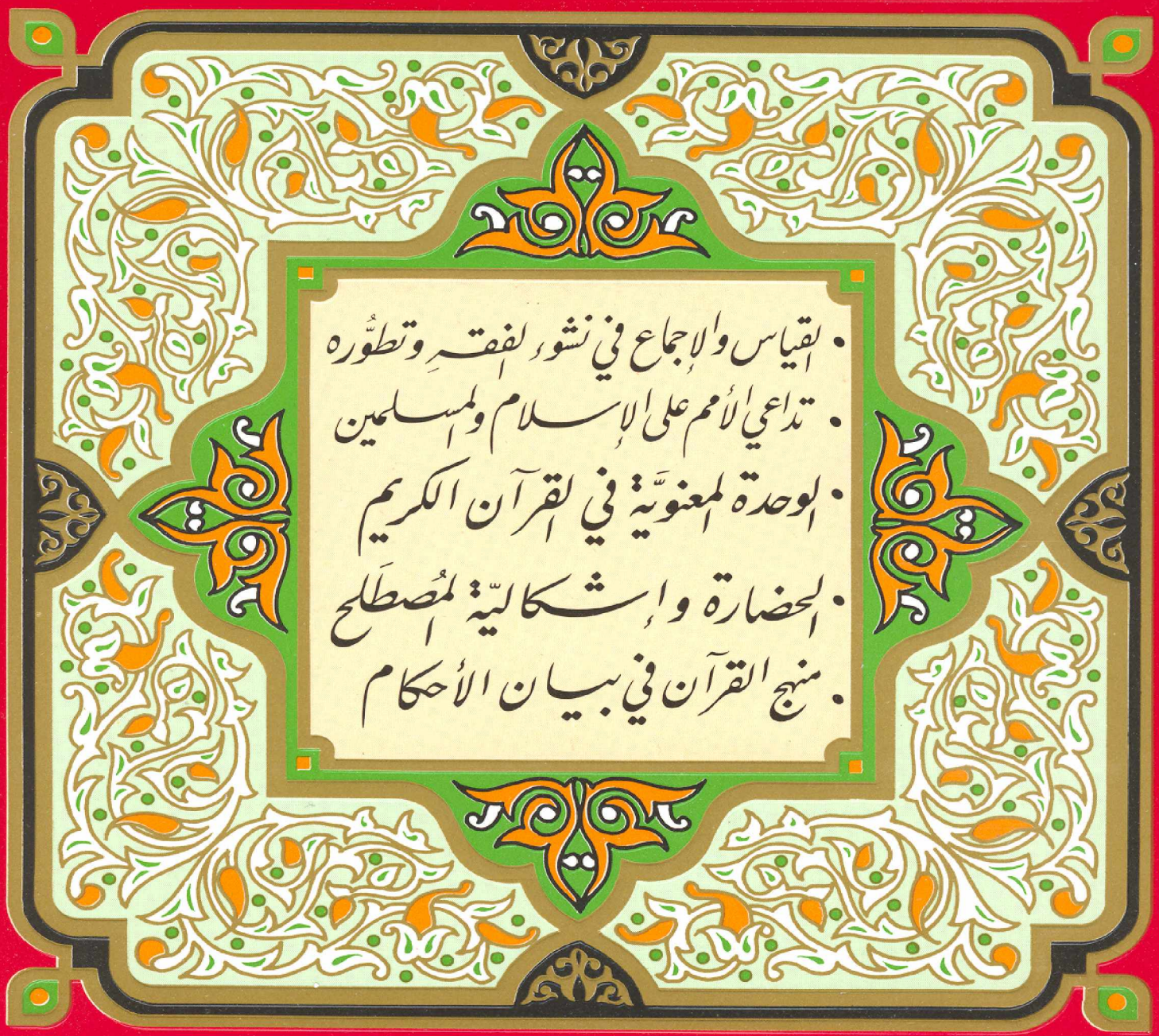

الحضارة وإشكاليّة المُصطَلح

أ. عطيّة فتحي الويشي

في معترك الفكر الإنساني المعاصر: ليس ثمة خلافات مثارة حول توصيف دقيق لمصطلح ما... بقدر ما يثار حول مصطلح الحضارة... فما يضمره من مضامين غامضة ودلالات فضفاضة.. جعل من تعريفه قضية مجال نظر وبحث بين يدي عصر تلوح في آفاقه قضايا ذات أبعاد إنسانية خطيرة.. قد يلعب فيها مصطلح الحضارة دوراً هائلاً، على غير عادة القرون المتأخرة من مسيرتنا الإنسانية.

والحضارة ـ بفتح الحاء وكسرها ـ في دلالتها اللغوية، تعني: «الإقامة في الحضر وهي خلاف البادية»[1].

(1) الفيروزآبادي ـ القاموس المحيط ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ 1407هـ ـ ط2 ـ ص481.

ولأهل الاختصاص في اصطلاح الحضارة: تعاريف متعددة، وتصاريف متشعبة... ففي مقدمته ينتهي ابن خلدون إلى تعريف الحضارة بأنها: «تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه»[2]. وعلى الرغم من إعجابنا بعلامتنا ابن خلدون، بيد أن تعريف الحضارة ضمن هذا النسق الاصطلاحي: يعد بمنزلة معيار نسبي لتقويم حركة الحياة في مجال زماني ومكاني محدود، قد لا يعبر عن فلسفة كل الظواهر الماثلة في حركة العمران البشري على امتداد عصورها وتباين أمصارها...!.

أما «ول ديورانت» Durant فيعتمد المعيار الثقافي في تفسيره مصطلح الحضارة حيث يعدّها: «نظاماً اجتماعياً يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي»[3] بيد أنه يربط في الوقت ذاته بين الحضارة والمدنية باعتبار التناسخ اللفظي للمصطلحين كليهما Civility - Civilization ويرى لفظ التمدن مرادفاً عنده للتحضر معنياً بـ: «الأقوام التي بوسعها أن تكتب»[4]. وهذا التعريف على ما فيه من خلط مفاهيمي... لا يعكس من الدلالة الاصطلاحية إلا قدراً يسيراً، الأمر الذي يحدونا شطر فلاسفة الحضارة لاستيلاد الرؤى حول ما عسى أن يسبر غور قناعتنا إزاء تلك الإشكالية.

فأحد علماء الحضارة، وهو «ألبرت أشفيتسر» كاد يمس أوتار الحقيقة عندما نظر إلى مصطلح الحضارة نظرة تأملية وموضوعية دقيقة، مؤكداً يقينه: «من أن العناصر الجمالية والاتساع الرائع في معارفنا المادية وقوانا، كل هذا لا يكوّن جوهر الحضارة. وإنما يتوقف هذا الجوهر على الاستعدادات العقلية عند الأفراد والأمم القاطنة في العالم. وما عدا هذا، فليس إلا ظروفاً مصاحبة للحضارة ولا شأن لها بجوهرها... إن الحضارة هي التقدم الروحي للأفراد والجماهير على السواء»[5].

---

(2) عبد الرحمن بن خلدون ـ المقدمة ـ دار القلم ـ بيروت ـ 1980 ـ ص172.

(3) ول ديورانت ـ قصة الحضارة ـ ت ـ زكي نجيب محمود ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ مصر ـ 1973 ـ ط4 ـ ص3.

(4) ول ديورانت ـ قصة الحضارة ـ مرجع سابق ـ ص10.

(5) ألبرت إشفيتسر ـ فلسفة الحضارة ـ ت: عبد الرحمن بدوي ـ دار الأندلس ـ بيروت ـ 1983 ـ ط3 ص34.

وفي سبيل تحريرنا لذلك المصطلح وضبط إيحاءاته، وتسويغ مفاهيمه وتصريف دلالاته: ينبغي أن نشير ابتداء إلى ضرورة التمييز بين مفاهيم ثلاثة: بين الحضارة بوصفها نظاماً فطرياً من المبادىء والأفكار، والتصورات والقيم والمناهج والمعايير... وبين التمدن بوصفه عملية معبرة عن مدى تفاعل الإنسان في هذا النظام... وبين حاصل تلك العملية من تقنيات وعلوم وفنون إبداعية واجتماع وغيره مما يعرف بالمدنية. فالمدنية في تجلياتها الإيجابية تعد تجسيداً لمعنى الحضارة.

ولعل ما يؤكد دورانا في حلقة مفرغة حين ننهض إلى تفسير مصطلح الحضارة: هو أننا نخلط بين تلك المفاهيم جميعاً، ولا سيما أن الحضارة تعني في معاجمنا الحديثة: «مظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي في الحضر»[6]. والحق أننا نخطىء كثيراً عندما نوقف مصطلحاً كهذا رهن دلالات عرضية من الإسهام البشري في مجال التقنيات أو العمران وحسب. وقد يتجاوز ذلك الخطأ حدود الأخلاقيات العامة للبحث العلمي حينما نخلط بين ما هو سماوي مطلق، وبين ما هو وضعي نسبي، بشأن تسويغ المفاهيم والمصطلحات الحضارية وتفسير ظواهرها المختلفة... فواقع الأمر: أن مصطلح الحضارة ـ فضلاً عن بعده الأخلاقي ـ له تميز روحي ووجداني فريد... والدين وحده ـ بغير تعسف ـ هو المرآة الصادقة لكل ذلك.

إن الحضارة في فكر علاّمتنا مالك بن نبي: عناصرها ثلاثة «الإنسان والتراب والزمان». هذه المكونات لا معنى لوجودها بغير فكرة أو وحي ينتقل بها من حالة الغموض والجمود والانفرادية والتعقيد إلى حالة الوعي والحركة والتفاعل الإيجابي الرشيد... ومن ثم فالحضارة لا تأخذ إطارها التوصيفي الدقيق السليم إلا إذا انبثقت من نواة عقدية دينية ربانية تستمد روحها وتستلهم توجهاتها من وحي الله عز وجل الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42]. ذلك بأن مجرد العقل ـ أو الثقافة ـ بمقتضى التجربة التاريخية قد عجز عن تدبير منهج حضاري تستقيم على أساسه حياة

(6) خليل الجر ـ معجم لاروس ـ مكتبة لاروس ـ باريس ـ 1973 ـ ص451.

الإنسانية بعامة، فعلى الرغم مثلاً مما حازته العرب من براعة في فنون الكلام والآداب الرفيعة وغيرها من الأنشطة... بيد أن ما اصطلح الأولون من المسلمين عليه ـ وصفاً لعهد ما قبل الإسلام ـ بالجاهلية. ولعل هذا ما عناه ابن خلدون حينما قرر: «أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية»[7].

ولعل منهج الوحي الرباني بوصفه رافد المعرفة الثري النقي، الذي يتحد مع الفطرة الإنسانية اصطلاحاً على إعمار الكون في سياق متوازن وخلاق: هو جوهر الحضارة وسر حياتها... فالحضارة كما يقول علامتنا مالك بن نبي: «لا تنبعث إلا بالعقيدة الدينية والحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء، يكون للناس شرعة ومنهاجاً»[8].

إن سلامة النظرة الإنسانية إلى الكون والحياة تنطلق أساساً من سلامة الاعتقاد بوحدانية الله عز وجل، ولا ريب أن التوحيد الخالص هو الفكرة الفريدة التي تعنى بانتظام شؤون الإنسان وتنسيق علاقته بكل من الله والكون والحياة... فمتى انعتق الفكر الإنساني من أغلال المادة، وتحرر من هيمنة الشهوات، وانساب في فلك التوحيد: فقد تحقق له الاستقرار والاستواء، وتوافرت لديه مصادر الإلهام الصادق بطبيعة الكون وسنن الحياة ومنهج الحركة والانتشار في الأرض، فالتوحيد هو: الحضارة، ومفتاح التحضر، ومنهج المدنية والتمدن... ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الحج: 77]. فعبادة الله على تنوع أنماطها، واتساع مفاهيمها وتعدد دلالاتها... هي الوسيلة الوحيدة إلى عمارة الأرض بقيم الخير والعدل، والرحمة والرفاهية والاستقامة.. وهي الضمانة الأكيدة للعزة والكرامة والسعادة... أما الوحي: فهو إلهام بمعيار التمييز الإنساني بين الحق والباطل وبين ما ينفع وما يضر، وبين أسباب سعادة الإنسان وأسباب شقائه.. ولقد شهد التاريخ بأن الإنسان لم يجد إجابات شافية على استفهاماته المتكررة بشأن هذا الكون المأهول بالأسرار والآيات والخيرات... ولم يتحقق له الاستقرار النفسي

---

(7) ابن خلدون ـ المقدمة ـ مرجع سابق ـ ص151.

(8) مالك بن نبي ـ شروط النهضة ـ ت: عبد الصبور شاهين ـ دار الفكر ـ بيروت ـ 1979 ـ ص5.

والنقاء الروحي والصفاء الذهني والتوازن العقلي، إلا برسالات السماء... التي أفسحت بدورها أمامه المزيد من إلهامات التحضر وسوانح المدنية... ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: 25]. ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 164]. وهذه هي الحضارة: أنماط وطرائق من التفكير المعرفي الإنساني الخلاّق، التي تتأسس على قاعدة التوحيد ـ توحيد ربوبية وألوهية، وتوحيد أسماء وصفات ـ فتنطلق حركتها الإبداعية وفق معايير أخلاقية وروحانية مطلقة... لا حدود لمنجزاتها المدنية، ولا قيود على تجددها وتطورها ونمائها على امتداد الحياة وفي كل أرجاء الوجود.!

إن الانتقال الحقيقي من البداوة إلى الحضارة: يعكس مدى تطور أفكار الإنسان، واتساع معارفه ومدركاته... ومن ثم تفاعله مع العالم من حوله بإيجابية؛ على أن ذلك الإنسان، وإن سكن الحضر وعافس المدنية: قد يظل همجياً بجمود أفكاره، وسلبية تحضره، وبانحرافه عن سواء الفطرة... وهو ما يعني فقدانه جوهر الحضارة ومنهج التحضر. ولعل تعريف «الإقامة في الحضر» الذي أفصحت عنه معاجمنا مرادفاً للحضارة: «لا يشكل عنصراً ذاتياً جوهرياً في مفهوم الحياة الحضارية القائمة أساساً على منهج فريد وروح أصيل ونمط في الحياة ليس له مثيل يتوارثه أبناء حضارة جيلاً بعد جيل»[9].

ذلك المعنى الصادق للحضارة إذا ما تقصيناه في أطوار الحركة الإنسانية على تقلباتها في الدهر... لا نلمس له وجوداً حقيقاً إلا في الإسلام. فلقد كانت الكيانات الحضارية من قبله ومن بعده: كيانات منغلقة تحكمها تجاه الأغيار فلسفة التناقض الجدلي الذي يعتمد في العلائق بين البشر منطق الحقد والتربص، والتحرش والبغي والعدوان... كيانات ذات مدنية هائلة ـ كعاد قوم

(9) صبحي الصالح ـ الإسلام ومستقبل الحضارة ـ دار الشورى ـ بيروت 199 ـ ط2 ـ ص19.

هود ـ بيد أنها بغير روح ولا ضمير ولا حضارة... كيانات شحيحة، جاحدة فضل ربها... ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَٱتَّقُوا ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: 123 ـ 135].

ومن ثم فقضية الحضارات الإنسانية معلق الفصل فيها على منهج يقيم علاقة إنسانية متوازنة بكل من الكون والحياة، علاقة تؤصل لقيم الخير، فيتحقق الاستقرار الحضاري في دنيا الوجود... وهو ما يعكس بقوة التعريف اللغوي للحضارة: «فلسنا نجد في تقرير سنن الكون وعلاقتها بفطرة الإنسان: فطرته الفكرية والنفسية والعملية في عمق ووفاء من الإسلام»[10].

ولعل الخلل الكامن في بنية الحضارة الغربية على اختلاف أنواعه ودرجاته... مرده إلى الاضطراب والقصور في الرؤية المسيحية إلى الله والرسل، ومن ثم إلى الكون والحياة الإنسانية، تلك الرؤية التي شوهها التثليث، ومسخها الرومان، وطمستها الحداثة والعَلْمانية... فجاء النموذج الحضاري زائف الشكل، متهافت المضمون، جافا: لا معنى له ولا روح فيه.

وإذا ما عرجنا على المدنية المعاصرة لنبحث أسباب تجردها من معناها الأخلاقي وانحرافها عن مسار القيم الإنسانية الأصيلة... وجدناها محصورة في انفصالها عن جوهر الحضارة واستغراقها في مستنقع المادية الآسن، أو أنها بمفهوم آخر: فعاليات وممارسات تبلورت بغير عوامل روحية أو معايير ربانية... وإذا جاز لنا التحدث عن حركة تغيير عالمية ترد للحضارة اعتبارها، فلسنا نعنى بتغيير تلك المدنية وإزالة أشكالها، كلا، وإنما نقصد تصحيح فلسفة ومعايير التمدن ذاتها... مما يضيف إلى تلك المدنية بعدها الحضاري ومعانيها الإنسانية. فإن مجرد المدنية لا يعكس بحال أي معنى للحضارة ما لم تنبثق

(10) البهي الخولي ـ الإسلام ومنهج المعرفة ـ مجلة الوعي الإسلامي ـ الكويت ـ عدد 65/ 37.

الأولى عن عقلية جمعية مؤطرة بالفطرة النقية... وهي ما نسميه بالضمير الإنساني، الذي هو وقود الحركة الإنسانية وملهم مسيرتها وباعث نهضتها!

وهنا ينبغي أن نشير إلى مصطلح آخر يتعلق بهذه الجزئية، فضلاً عن كونه ذا قرابة دلالية من مفهوم الحضارة كذلك: وهو الثقافة Culture. والثقافة لغة: «الحذق والمهارة: والفطنة وسرعة الإدراك، والإحاطة البارعة في فروع شتى من المعرفة والقدرة على تطبيقها»[11] ومن ثم فالمثقف هو ذلك الإنسان المتحول من شخص تحكمه الغرائز والأهواء إلى شخص محكومة حركاته بفكر ناضج سليم... «فالثقافة ترمي إلى الكشف عن آفاق الإنسانية المتسامية»[12]. بيد أن مصطلح الثقافة مجرداً: يكتسب في واقعنا المعاصر، كما اكتسب قديماً، خصائص وسمات ودعاوي وشعارات قد لا تتصل بالعقيدة الدينية إلا بصورة نسبية؛ فيكون انتماؤه إلى الجغرافيا أقرب منه إلى التاريخ حين يتسربل بالعادات والتقاليد المحلية؛ أو يكون ولاؤه للعرق غالباً على ولائه لآصرة العقيدة حين تنفصم عرى التاريخ ويهترىء نسيجه... والثقافة وفق هذا النسق الغريب لا تعنى بعميق الأفكار وأصيل المبادىء التي يتفتق عنها الموروث الديني بقدر ما تعنى بالأعراف والأنماط السلوكية السائدة بوصفها منتجاً بيئياً ذا علاقة نسبية بقيم السماء...؛! هذا الاتجاه يكتسب كل يوم زخماً وحيوية سعياً إلى الهيمنة والسواد ـ إن لم يكن قد هيمن بالفعل ـ على بيئة المؤسسة الفكرية والثقافية في غير بلد من بلدان الأمة الإسلامية، متوسلاً إلى ذلك بفلسفة الإحلال الأيديولوجي؛! فَرَوَّجَ، على حساب الفكر الإسلامي، للفرعونية في مصر، والآشورية في الشام، والبابلية في العراق، والفارسية في إيران والطورانية في تركيا... إلخ.!

والثقافة تجسد بشكل عام المحور القومي في فلسفة الحضارة، فهي فكرة نسبية عن أسلوب الحياة، على عكس الحضارة كمنهج شامل يضم في نسيجه

---

(11) خليل الجر ـ معجم لاروس ـ مرجع سابق ص365.

(12) أحمد شلبي ـ موسوعة الحضارة الإسلامية: المناهج ـ مكتبة النهضة المصرية ـ 1987 ـ ط5 ص19.

مختلف الثقافات المتجانسة، وتنتظم به علاقة الإنسان بكل من الله والكون والحياة انتظاماً ينم عن عقيدة دينية وليس عن عادات وتقاليد، وأعراف اجتماعية أو مذهبية... ومن ثم فكل حضارة ثقافة وليس كل ثقافة حضارة!.

إذ ليس بمعقول كون كل من الثقافة الكاثوليكية أو الأرثوذوكسية أو البروتستانتية: حضارات قائمة كل بذاتها من دون غيرها. ولكن هي بالتحديد عناصر في حضارة غربية مسيحية واحدة. كذلك لا يمكن بحال كون الشيعة أهل حضارة من دون أهل السنة على الرغم من التنوع الثقافي الذي تتميز به داخل النسيج الحضاري الإسلامي الواحد.

وكما هو باد للعيان: أن إمكانية ردم الفجوة الثقافية بين كل من الصرب والكروات في البلقان، وبين الكاثوليك والبروتستانت في بريطانيا وإيرلندا الشمالية، وبين الباسك والإسبان.. وكذا الأمر بين السنة والشيعة في كل من إيران ولبنان وباكستان أو بين القومية والإسلامية في عالمنا الإسلامي... هذه الإمكانية معتبرة ومقبولة... بيد أنه ليس بوارد الآن ـ وقد لا يكون في المستقبل القريب ـ إمكانية ردم الفجوة الحضارية بين الغرب والإسلام... وهو أمر جدير بالبحث عن صيغ حل ومخارج ملائمة ومعقولة... لكن الذي ينبغي تقريره في هذا السياق أن الثقافة بغير دين: جسد بلا روح وعبث وفوضى، لا سبيل لها غير الانتحار والضياع.! كما أن الدين والحضارة كليهما: ظاهرتان متآلفتان من حيث كونهما ذواتي معامل واحد ومنطلق واحد: هو الفطرة. فليس بوسع فقيه الحضارة تفسير أطوار الحركة الإنسانية عبر التاريخ بمعزل عن زخمها العقدي بأي حال،! فهو روحها وقوام أمرها، ورهن عافيتها ورمز خلودها في العالمين...؛! ونعود فنؤكد أن ما سجله التاريخ من مجد وشرف وكرامة ورفاهية إنسانية... إنما كان في عصور أتيح للإسلام فيها التعبير عن وجوده مشفوعاً بالضمير الإنساني، فكشف عن حضارة لا يزال عطاؤها مصدر إلهام روحي ومادي متجدد لأي من أجيال الإنسانية الحاضرة والمستقبلة. ولئن استلهمت المدنية المعاصرة من الإسلام ـ كما اقتبست المعارف المادية من قبل ـ قيمه الروحية والأخلاقية... فلربما حققت ذلك المعنى الفقيد للحضارة.!

ولأجل ترشيد المسار الإنساني الذي درج على البطر والخيلاء... جعل الله تعالى عملية التحضير في ظلال الهدي النبوي: عملاً من أَجَلِّ القربات وأكرم الشعائر التي يتوسل بها الإنسان إلى رضوان ربه، ! بل كفل لأهل حضارة الخير: حياة طيبة أبدية... ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97]. ومن ثم كان التحضر في عقيدة التوحيد: عبادة لله تعالى وتكليفاً ربانياً يقتضي الخير والمعروف، ويحض عليه، ويشجب المنكر ويزدريه وينهى عنه... ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾. [آل عمران: 104] فإذا جاز لغيرنا الاستغراق في القيم المادية الآسنة فلن ينضح وعاؤهم بغير ما فيه. بيد أن هذا الاتجاه ـ على صعيد آخر ـ لا يناسبنا نحن المؤمنين لاعتبارات عديدة، أدقها: أننا نتعبد الله بالتحضر ونتوسل إليه بالحضارة، وذلك إلى درجة يمكن عندها: عد الجاهل الأحمق غير المتحضر: إنساناً مطعوناً في نسبته إلى الإسلام.!!

وما نخلص إليه: أن ثمة هموماً تختلج بمصطلح الحضارة، وتتعدى إطارها النظري والنفسي... لتقتحم على الإنسانية واقعها في أوضاع من التحديات الصارخة... التي تفسد عليها أمرها، وتخط خطوطاً حمراء بين أمم وشعوب ما خلقها الله إلا للتعارف والتعاون فيما بينها... ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: 13]. تلك الهموم إنما ترد بالأساس إلى تباين فلسفة الحياة في ضوء الموروث الديني لدى المجموعات الحضارية المختلفة أيا كان هذا الدين سماوياً أو طوطمياً... وبحسب ذلك التباين ينشأ التناقض والتنافر بين المجتمعات الإنسانية ومن ثم التحرش والاصطدام.

ولعل ما نعانيه ـ في مجتمعاتنا المسلمة ـ إزاء تلك الإشكالية هو أن الخيارات المطروحة أمامنا التي لا يكاد يوجد لمرارها علاج ناجع، تتلخص فيما يلي:

ـ إما القبول بصيغ الواقع العالمي الجديد المفرط في شموليته وغطرسته، الذي

يرى بعين العنصرية الحضارية: «أن للتطور الإنساني طريقاً واحداً يجب الأخذ به، وأن الحضارة المعاصرة حضارة كونية يتعين تعميم وفرض معاييرها ومبادئها على الجميع»!! فهي صيغ تجُبّ مآثرنا الحضارية، وتجحد دورنا في صنع التاريخ الإنساني، وتزدري ذاتنا... فتضعنا تحت طائلة الوصاية أتباعاً أرقاء.!!

- وأما الاصطراع بالهوية الحضارية. التي ننجر بمقتضاها على غير تهيؤ منا - بفعل الضعف والضمور الآني في ذاتنا الحضارية - إلى اصطدام غير متكافىء من غير وجه، فيلتصق بخف الجمل ما ادخره النمل في سنة.!! ولا حول ولا قوة إلا بالله!!

ومهما تباينت الرؤى وتعددت الطروحات حول مفهوم الحضارة، فإن خصوم حضارتنا لا يعنون إلا: الحضارة: الدين، وليس الحضارة: اللغة أو العرق أو الأيديولوجية... فإذا تسنى تحزيب المعطى الثقافي وفق العوامل البيئية، مثلاً، فليس بملكنا تجزيء المعطى الديني الذي ينبثق من المشكاة الإلهية ومحجتها السنية السوية... ولعل هذا ما بدا للنبهاء من وهلة قراءتهم في أدبيات الفكر الحضاري المعاصر، التي ترى أنه: «في الخلافات الطبيعية والأيديولوجية يصبح السؤال أي جانب تختار؟ لأنه من حق الناس أن ينحازوا إلى أي طرف أو جانب، ولكن في الخلافات الحضارية يصبح السؤال: ماذا تكون؟ وهذا لا يمكن تغييره، وكما تعلمنا من البوسنة والقوقاز والسودان فإن الإجابة الخطأ قد تتسبب في رصاصة في الرأس. إن الاختلاف الديني أقوى من الاختلاف العرقي، فيمكن أن يكون شخص نصف فرنسي ونصف عربي وله جنسية مزدوجة، ولكن من الصعب أن يكون نصف كاثوليكي ونصف مسلم»[13].

ربما لم يرق للبعض مثل هذه الأفكار، بيد أنها واقع يوشك أن يفرض نفسه، ويسود أدمغة البشر بدعم من التاريخ الذي لا سبيل إلى تجاهله في ظروف

---

(13) صومئيل - هانتنجتون - صراع الحضارة. مقال مترجم - مجلة السياسة الدولية - ع116 - إبريل 94 - ص321.

تمس حاجتنا إليه أوتار المستقبل، سواء في تحضيراته الآنية أو في قسماته المرتجاه... ومن ثم فلا مبرر لفلسفة الهروبية التي يتعلل بها بعض المفكرين في بلادنا... بدعوى تداخل المفاهيم، وتناسخ المصطلحات الحضارية أو غموضها.!

وما يمكن قوله على صعيد آخر: إن هذه المصطلحات حين تفيء إلى مواضعها الصحيحة في سياق منظومة المفاهيم الإنسانية: ربما تسنى المزيد من قيم الرسالات السماوية التي يمكن الاصطلاح عليها، وهذا يعني إمكانية توافر فرص جادة ومناسبة للحوار بين الحضارات على اختلافها.